أفضل طرق البحث الإجرائية والتاريخية، التوثيقية والميدانية ـ يمكن أن يُمثّل بحدّ ذاته مسؤولية كبيرة تمسّ قضايا الحكم الأخلاقي والسياسي. ولن يكون الأمر أكثر إلحاحاً منه الآن ـ بالرغم من آراء ليوتار ـ عندما تكون الضحايا موضوعاً لحملات التضليل ــ أو مؤامرة الصّمت ــ التي تضاعف حجم الظلم الأصلي بنكرانها (مثل فوريسون) أنّ ما لحق بهؤلاء من أذى لايمكن أن يصبح قضية معرفة مبرهنة لا يشوبها شكّ. لأن الطريقة الوحيدة، وحسب مايذهب إليه ليوتار، لتفنيد اختراقات سافرة كهذه هي الإنتقال إلى خطاب مختلف، "نظام عبارة" آخر تفسح فيه قضايا الذاكرة الواقعية أو الضمانة الإجرائية طريقاً لمستلزمات المحكمة الأخلاقية حيث في ظلّ قانونيتها تكون هذه المعايير بكلّ بساطة غير قابلة للتطبيق. ولكن هذا الموقف لايقدّم أكثر من استراتجية تنحّ، أو نكوصٍ إلى موقف نسبوي راديكالي يتسبّب في تعطيل الحوار بكامله.

ليوتار مناقشاً كانط

واحدة من المقاييس التي تميّز موقف ليوتار المضادّ للمعرفيّ هي الأهمية التي يوليها للتسامي الكانطي كمنظومة من الفكر الأخلاقي والسياسي ــ الإجتماعي. فبالنسبة لكانط، إنّ التسامي هو ما يتجاوز جميع طاقاتنا على التمثيل المحدّد، تجربة لانجد لها نمطاً مفهومياً أو حسّياً مناسباً للإكتناه، والتي تختلف عن الجميل في أنّها لاتوفّر أي شعور بالتوازن الهارموني أو الإتفاق بين هذه الملكَات.[٦] مع ذلك، ثمّة شيء في داخلنا، استطاعة ايجابية ما تعطي كلمة "التسامي" معناها (وإن كان مبهماً) والتي يقرن كانط طبيعتها بفلك الأفكار أو الأحكام "مافوق الحسّية" (أقصد، الدّاخلية، أو غير الظّاهراتية). إذن، وتحديداً عند النقطة التي يواجه فيها الفهم حدودَ قدرته على اكتناه تجربته ـ "اخضاع الحدوس للمفاهيم"، كما تذهب إليه عبارة كانط ــ يكون في مقدورنا التبصّر بما يختبأ وراء الإدراك الظاهراتي، وتحديداً وجودنا